

خطاب الممانعة لأدب الحداثة في السعودية قراءة في المتن

د. محمد بن يحيى أبوملحة
جامعة الملك خالد -السعودية

تواجه الكاتب صعوبة الكتابة، وتتضاعف هذه الصعوبة حين تكون الكتابة كتابية على الكتابة. ومن مارس العمل النقدي يستشعر صعوبته، وتأبّي قلم النقد الذي لا يكون مطواعاً دائماً، ولا شك أن هذا التأبّي يكون أشدّ حين نمارس نقد النقد.

ويأتي هذا البحث في سياق القراءة بوصفها -حسب التوسير- منهجاً لاستقراء النص، وإعادة فهمه في ضوء سياقات لا يصرّح بها النص¹. ويتوجّه إلى قراءة خطاب الممانعين لأدب الحداثة، والرافضين لتوجهاتها وإنجازاتها، وهو نتاج قد كوّن تياراً يقوى زخمه أحياناً ويضعف أحياناً أخرى. وهذا النتاج الرافض لأدب الحداثة يتبادل مع أدب الحداثة المواقع، فتارة تكون الحداثة تياراً، ويكون رفضها سباحةً ضد التيار، وتارة أخرى تكون الحداثة نفسها سباحةً ضد تيار الرفض والممانعة؛ وذلك حسب الظروف والمناخات والمعطيات.

وقد اختار الباحث مصطلح (الممانعة) وفضّلَه على مصطلح (الرفض) مثلاً؛ لكون مصطلح (الرفض) قد يعني المواقف السلبية التي لا تتجاوز الكُره وعدمَ القبول في مستواهما السلبيين -وهي مواقف اختارها بعض الرافضين للحداثة- بينما يُستخدَم مصطلح (الممانعة) في المواقف التي تتجاوز دائرة السلبية، والرفض الصامت أو الخافت الصوت إلى رفضٍ إيجابيٍّ² يفصح عن نفسه، ويرفع عقيرته بمحاربة الحداثة ومعاداتها.

ويُراد بمصطلح (الأدب) في هذا البحث: ما استقرّ عليه هذا المصطلح من الدلالة على الآثار النثرية والشعرية³، وما يتصل بها نقداً أو تحليلاً أدبياً. وقد اختار الباحث من نتاج الممانعة لأدب الحداثة كتابين بوصفهما نموذجين يمثلان هذا التيار، وهما كتابا:

- (جناية الشعر الحر) لأحمد فرح عقيلان رحمه الله⁴.
- وكتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) لعوض بن محمد القرني⁵.

وأما أسباب اختيار هذين الكتابين فتعود لكونهما يمثلان تيار (الممانعة)، وإن أيّ متابع لحركة الحداثة في المملكة العربية السعودية ليدرك أنّ هذين الكتابين يمثلان هذا التيار، بل ينطقان باسمه، ويتحدثان نيابةً عنه، كما سيبيّن هذا البحث.

كما أنّ صدور هذين الكتابين جاء في الزمن الذي شهد مرحلة من مراحل احترام الصراع (المُعلن) بين الحداثة ومناوئها في المملكة العربية السعودية، وهي فترة الثمانينيات من القرن الميلادي الماضي⁶. وكذلك فالكاتبان يمثلان نمطين رئيسيين من أنماط الممانعة لأدب الحداثة، حيث ينحو كتاب (جناية الشعر الحرّ) المنحى الأدبي والذوقي، بينما ينطلق كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) من الموقف الشرعي والأخلاقي، على الرغم من تداخل الجانبين في كلا الكتابين.

ومما يشهد لكون هذين الكتابين قد مثّلا تيّار الممانعة في تلك الفترة ما أعقب صدورهما من ردّات فعل قوية وعميقة. وقد تراوحت ردّات الفعل تلك ما بين القبول والانتصار، والرفض والاستنكار، وكانت ردّات فعل حادّة بلغت - أحياناً - حدّ التطرف في الجانبين⁷.

ومما يؤكّد - كذلك - أن الكتابين يمثلان (التيار) ما جاء في هوامش كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام): في بدايته وختمه من إشادة عددٍ من علماء الدّين، والمفكرين، والأدباء المحافظين⁸.

وعلى الرغم مما تمثّله أشكال التلقّي تلك من حراك فكري ومجتمعي جدير بالدرس إلا أنّ هذه القراءة ستكون موجهة، بل مقصورة على متن الكتابين.

وقد خُصّصَت الكتابة بأنّها (في المتن) لتكون أكثر موضوعية، وحتى تتخفّف - ولو بقدر - من تأثير الهوامش التي قد تؤثر في وجهة القراءة، وقد تنتقص من موضوعيتها.

ومن ثمّ حاولت هذه القراءة أن تتأى - قدر ما تستطيع - عن الهوامش التي رافقت الكتابين، من حيث كان الكاتبان ردّ فعل لكتابات أو أطروحات أخرى، أو من حيث كان الكاتبان مادة لردّات فعل تبعت صدورهما.

وتأتي هذه القراءة للخطاب بوصفه: "نظاماً مركّباً من عددٍ من الأنظمة التوجيهية والتركيبية والدلالية والوظيفية"⁹.

ويتمظهر هذا الخطاب في عدّة أنظمة تواصلية: فقد يكون خطاباً متعالياً، يتوجّه من طرفٍ يُملّي؛ وهذا ما يستدعي الاستتباع للطرف الآخر: أي أن يكون

الطرف المتلقّي خاضعاً تابِعاً للطرف المُملّي، أو أن يكون خطاباً تفاعلياً جدلياً تتفاعل فيه ومن خلاله أطراف العملية التواصلية¹⁰.
فما النظام الذي تجلّى فيه خطاب الممانعة لأدب الحداثة؟
وما الحجج التي قدّمها هذا الخطاب؟
هذا ما يحاول البحث الإجابة عنه من خلال هذه القراءة.
وسأقدم قراءتي لهذا الخطاب -من خلال قراءة الكتّابين اللذين تمّ اختيارهما نموذجين لهذا الخطاب- في النقاط الآتية:

1- خطاب العتبات.

2- مُنطلق الكتابة.

3- تموقع الكاتب وموقعة المكتوب له والمكتوب عنه.

4- السّلم الحجاجي.

1- خطاب العتبات: تشكّل العتبات مدخلاً مهماً من مداخل قراءة النص، وهي مفتاح من مفاتيح تأويله، من حيث كونها توجه النص، وتكتفّ دلالاته، وتُجمل رسالته.

أولى تلك العتبات هي:

(العنوان)

وحين نقرأ عوائِي الكتّابين نلاحظ ما يأتي:

الكتاب الأول: (جناية الشعر الحرّ):

وهذا العنوان يمثّل إدانة مبكرة للشعر الحرّ، ويصف أثره بالجناية التي يقسمها الكاتب بعد ذلك إلى جنّيات.

أما الكتاب الآخر فعنوانه: (الحداثة في ميزان الإسلام):

وهو عنوان يوحي بالتوازن، ويؤخّر الحكم على الحداثة، فلا يصرّح بأيّ حكم في العنوان. كما أن العنوان الأول يستخدم مصطلح (الشعر الحرّ) ولعلّه المصطلح الأكثر تداولاً في تلك الفترة؛ حيث لم يشع حينها مصطلح الحداثة¹¹.

وهذا العنوان يوجّه العمل إلى الناحية الفنية والأدبية، أما الكتاب الآخر فيستخدم مصطلح (الحداثة) حيث كان هذا المصطلح قد شاع حينها، كما أنّ فيه إيحاءً بالجانب الأيديولوجي لحركة (الحداثة). ويؤكد هذه الوجهة حين يستخدم مصطلح (ميزان الإسلام) حيث يوجه العمل نحو الناحية الشرعية الدينية.

ولكنّ هناك عنوان جانبي للكتاب وهو (نظرات إسلامية في أدب الحداثة) وهذا العنوان الجانبي هو من قبيل المقيّد الذي يقيّد المطلق، فقد وصف الكتاب بأنه (نظرات). والنظرات تحمل طابع النسبية، فالناس يختلفون في نظرته

للأمور والحكم عليها، وقد وصفت هذه النظرات بأنها (إسلامية) ولا شك أن هنالك فرقاً بين (الإسلام) وهو المصطلح المستخدم في العنوان الرئيس معرّفًا بأداة التعريف، وبين (إسلامية) النكرة التي تحيل إلى رؤية خاصة أو طريقة معينة في فهم الإسلام، وتنزيل أحكامه وموازينه في الواقع، وهناك تحديد آخر حيث خُصَّ هذا العمل بعد العموم الوارد في العنوان الرئيس بأنه (في أدب الحداثة)، ولم يعد الحديث عن (الحداثة) بشكل عام، بل عن (أدب الحداثة). ومصطلح (أدب الحداثة) بالموازنة مع مصطلح (السعر الحر) أعمّ، فهو موجّه للأدب عموماً لا للشعر خصوصاً.

الإهداء: يتضمّن كتاب (جناية الشعر الحرّ) الإهداء الآتي:

"إلى كل أديب يؤمن بالله، ويغار على القرآن، ويعتزّ بلغة العرب، ويتبنّى مكارم الأخلاق"¹².

وهذا الإهداء إهداء عامّ باعتبار، وخاصّ باعتبار آخر، عامّ من حيث إنه ليس إلى شخص بعينه أو مجموعة أشخاص، بل هو موجّه إلى شريحة الأدباء، ولكن ليسوا أيّ أدباء، ومن هنا تأتي خصوصيته؛ فهو موجّه إلى أولئك الذين تتوافر فيهم هذه الصفات، وينطلقون من هذه المنطلقات، ويؤمنون بهذه المشتركات، ووظيفة الإهداء هنا: استمالة هؤلاء الذين تتوافر فيهم هذه الصفات، وحفزهم، وتنبيههم إلى أنّ النصّ القادم سيدافع عن هذه الثوابت ضدّ ما يراه انتقاصاً منها، وفي هذا افتراض مسبق بأن (الشعر الحرّ) ينقص من هذه الثوابت ويحاربها.

وأما كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) فيأتي غُفلاً من الإهداء، وإن كان يرد فيه في المقدمات، وفي صفحات الكتاب إشارات كثيرة إلى الشريحة التي يستهدفها الكتاب بخطابه وهم "طلبة العلم، وشباب الصحوّة"¹³، و"العلماء والأدباء الغيورون"¹⁴.

وهكذا أراد صاحب الكتابين لكتابيهما أن يكونا موجّهين إلى شريحة معينة تتفق معها في الرؤى، والمنطلقات، والأهداف.

وبما أن الكتابين موجّهان إلى هذه الشريحة بعينها فهما -بهذا الاعتبار- نصّان مغلقان لا يفتحان على الآخرين وعلى المخالفين، خصوصاً (الخصوم) من أهل الحداثة، وهذا مما يفسّر -بالإضافة إلى ما سيأتي لاحقاً- حالة الاحتقان التي صاحبت وتلت الكتابين، وربما يفسّر كذلك -ما حصل من اصطفاف فكري وأيديولوجي (وهذا لا يعني أنّ الممانعين لتيار الحداثة هم -وحدّهم- من يتحمّل تبعه الاحتقان والاصطفاف، فالحداثيون يقاسمون الممانعين هذه التبعة ولا شكّ، ولكن هذا البحث موجّه إلى تيار الممانعة تحديداً).

وتشكّل الخاتمة عتبة الخروج، وهي آخر ما يبقى في وعي القارئ أو ذهن السامع؛ ولذا يحرص الكُتّاب على العناية بهذه العتبة، وكما جاء كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) غُفلاً من الإهداء، فقد جاء - كذلك - غُفلاً من الخاتمة. وأما كتاب (جناية الشعر الحرّ) فقد اجتهد في تكثيف رسالته في خاتمة الكتاب، حيث ختم كتابه بثلاثة نصوص: "آية من كتاب الله الحكيم، وحديث شريف من كلام نبيه الكريم، وبيت شعر من التراث الجميل، أما الآية فقول الله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"، وأما الحديث الشريف فقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يَكُنْ أَحَدُكُمْ إِمْعَةً)، وأما بيت الحكمة فهو قول شوقي-رحمه الله-:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا¹⁵
واضحة رسائله هنا، فالرسالة الأولى: أنّ الشعر الحرّ محاولة لهدم اللغة العربية، ولكن لا سبيل له إلى ذلك، لأنّ الله تعالى حفظ القرآن الكريم، ومن ثمّ فقد حفظ اللغة العربية التي نزل بها هذا القرآن. والرسالة الثانية أنّ الشعر الحرّ إنما هو تبعيّة للغرب وتقليد له فيما يضرّ ولا ينفع. وأما الرسالة الثالثة فهي: أنّ الشعر الحرّ محاولة لهدم أخلاق (الأمة)، وأن على الأمة أن تحافظ على أخلاقها، وتصدّ محاولات دعاة الشعر الحرّ حتى لا تهلك، وتردّي، وتذهب بذهاب أخلاقها.

وهذه الرسائل الثلاث تكثيفٌ لبعض الحجج الواردة في الكتاب كما سيأتي لاحقاً.

وأما خلوّ كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) من خاتمة فلعلّ ممّا يفسّره أنّ الكاتب شعر أنه أوصل رسالته قبل الوصول إلى الفصل الأخير: فصل (مما قيل في الحداثة)، فجاء هذا الفصل كأنه ملحق إضافي للكتاب.

ومن العتبات ندلّف إلى ما وراءها، إلى مُنطلق الكتابة والباعث عليها:

2- مُنطلق الكتابة: لقد كان المنطلق الديني هو الأساس في الكتابين، يقول أحمد فرح عقيلان - رحمه الله-: "حين أرى مخالف المأمرة تمتد إلى كياني ومجدي وديني، أعتقد أن كشف الأفتنة قد أصبح فرضاً يحتمّه الدين"¹⁶. وإن كان أحمد فرح عقيلان ينطلق مما يُمليه عليه دينه، للحفاظ على مجد (الشعر الأصيل) -كما يسمّيه- بوصف هذا الشعر الأصيل مكوّناً من مكوّنات التراث، ومن ثمّ فالدفاع عنه دفاع عن المجد يُحتمّه الدين، حيث يقول في موقع سابق من الكتاب: "لقد وصل دعاة التجديد، كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم، إلى أهدافهم المخربة، فأتخنوا شعرنا الأصيل الجميل وأفقدوه شعبيّته، وصرفوا عنه عَشَاقَه، وأطاحوا بمجد أدبي شامخ"¹⁷.

إذن فالهدف الدفاع عن (المجد الأدبي) المتمثل في (الشعر الأصيل)، وهو الهدف الذي اتجه الكتاب إلى تحقيقه، والرسالة التي حرص على إيصالها، والدّين يوطّر هذا الهدف بوصف الشعر الأصيل مكوّنًا رئيسًا من مكوّنات (تراث الإسلام) وهو المصطلح الذي يستخدمه الكاتب¹⁸.

ويؤكد الكاتب أن هذه الهجمة الشرسة تستهدف (تراث الإسلام)، وإن نجحت فستُردي أمة الإسلام، ومن ثمّ فلا بد من إنقاذها، يقول الكاتب: "وكيف لا أنبّه أبناء أمتي إلى حبال سوء تحت أقدامها، إن لم أكشف لهم مواقعها فقد تلتفت حول أعناقهم وترديهم"¹⁹.

وأما كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) فهو ينطلق من عقيدة الولاء والبراء كما ينصّ الكتاب على ذلك²⁰، وهو يرى أنّ أدب الحداثة منكر لا بد من إنكاره؛ لأنّ الأمة "ما لم ينبّر منها من يرّد المنكر، ويقيم المعروف، يوشك أن يعمها الله بعقاب من عنده"²¹.

إذن (فالأمة توشك أن ترّدَى أو أن يعمّها الله بعقاب من عنده، والكتابان محاولة لإنقاذها، وهذا أمر يحتمه الدين، ويوجبه الشرع): لعلّ الكلمات السابقة تمثّل منطلق الكتابة في الكتابين.

3-تموقع الكاتب وموقّعة المكتوب عنه والمكتوب له: إنّ الموقع الذي يتخذه الكاتب أثناء الكتابة يؤثّر-ولاشك- في كتابته من حيث وجهتها وبنائها وخطابها، فما المواقع التي اتخذها الكاتبان هنا؟

اتّخذ أحمد فرح عقيلان -رحمه الله- موقع النذير لأمتة الذي يرى أعداءها من الخارج والخونة -كما يراهم- من أبنائها يتأمرون للكيد بها، وتقويض قيمها، وهدم تراثها، وهو يتصور الأمر على أنه معركة بين حزبين وطرفين متخاصمين فيقول: "بمقدار تألب المبطلين وحماستهم، بمقدار تصدّع صفّنا"²².

فهو هنا يستخدم مصطلح الاصطفاف، ويؤكد أن صفوف (المبطلين) مترابطة، وصفوف(نا) متصدعة منشقة؛ لذا فهو يدعو إلى توحيد الصف، ومناجزة أعداء الأمة التي غفلت عما يحاك لها: "وكيف لا أنبّه أبناء أمتي إلى حبال سوء تحت أقدامها"²³.

ويلفت النظر هنا استخدام (نا) الدالة على المجموع؛ وهذا يؤكد أن الكاتب ينطق باسم تيّار يدافع الحداثة، ويستخدم هذا الضمير الناطق باسم التيار - كذلك - في كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) في مواضع عدة²⁴.

موقّعة المكتوب له : وكما يموقع الكاتب نفسه فإنه يموقع كذلك المكتوب له الذي يتوجه إليه بالخطاب، والكاتبان يموقعان المخاطبين على أنهم الجمهور

من الأدباء الغيورين، وطلبة العلم، وشباب الصحوّة الذين غفلوا عن هذا الخطر الداهم، فلم يعيروه اهتماماً أو كان ردّهم له ودفعهم إياه أضعف مما يجب؛ فلم تُرض تلك الردود، ولم تُشَفِّ، كما يؤكّد كاتب (الحداثة في ميزان الإسلام): "أنّ كثيراً ممّن كان المفترض فيهم من العلماء الأفاضل والمفكرين النابهين أن يكونوا أول المتصدّين لهذه الموجة الفكرية العارمة، وقفوا منها موقف المتفرج غير المبالي، أو ردّوا عليها في مقالات محدودة في بعض الصحف ثم نُسي الأمر"²⁵.

ويظهر في بعض فصول الكتّابين إشارات إلى أن الكتّابين يموقعان نفسيهما متحدثين [لا كتّابين]، ويموقعان المتلقين مستمعين²⁶ [لا قراء]، وفرق بين أن يكون المتلقّي مستمعاً وأن يكون قارئاً، فالمستمع فيه جانب من الرضوخ وعدم التحليل الكافي للكلام الذي يسمعه، بينما يجد القارئ الوقت الكافي للتحليل والنظر. والقراءة -كما هو معلوم- شكل من أشكال النقد. ونأخذ في الاعتبار -أيضاً- أنّ كتاب (جناية الشعر الحرّ) كان في الأصل محاضرة أُلقيت في نادي أبها الأدبي، وأنّ كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) ربما كان مادة شفوية مسموعة قبل أن تتحول إلى كتاب.

موقعة المكتوب عنه: وأعني هنا الحداثة، وأدبها، وأدباءها، ومن الملحوظ أنّ الكتّابين يموقعان الحداثة وأدبها وأدباءها موقع الأعداء والمخربين، أو الضالّين المنحرفين، وفي أفضل الحالات قد يكونون من المخدوعين المغرر بهم، ولعلّ ذلك مما يفسّر الحديّة في تصنيفهم، والتساهل في إطلاق الألفاظ الجارحة عليهم، فهم يوصفون في كتاب (جناية الشعر الحرّ) بأنهم "عصابة الشعر الحرّ"²⁷، وتوصف أهدافهم بأنّها "مخرّبه"²⁸، ويوصف تجديدهم بأنّه "معول هدم، ومؤامرة لؤم"²⁹، ويوصفون كذلك بـ"المُبْطِلين"³⁰.

ومما يجب ذكره هنا أن الشيخ أحمد فرح عقيلان -رحمه الله- ذكر في كتابه قوله: "أشهد الله أنني لا أريد أن أبدأ على إنسان، بل إنني لأدعو أدبار صلواتي لكلّ الإنسانية بالهداية"³¹، ثم عبّ على ذلك بأنه مضطر لكشف خلفيات شعراء الحداثة ورموزها وماضيهم؛ لأنه يعتقد أن هنالك مؤامرة، وأن كشفها وفضحها فرض يحتمّه الدين كما سبق.

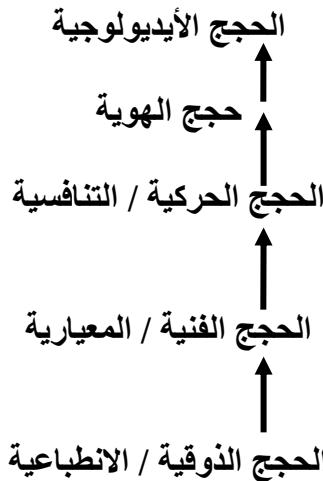
وفي كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) يوصف رموز الحداثة بصفات جارحة كذلك، كقول المؤلّف: "وهذا المذهب أطلق عليه كُهانُه، وسدنة أصنامِه اسم (الحداثة)"³²، ويقول في موضع آخر: "لن نأبه بنقيق الضفادع، ولا نعيق اليوم والغربان"³³. ويرى المؤلّف -كذلك- أن العودة عن ركب الحداثة توبة، ويقول عن أسباب تأليفه للكتاب: "لعلّ هذا البيان والإيضاح يكون فيه موعظة

لمن خدع بالحدّثة من أبنائنا، فينبى إلى ربه، ويعود إلى أصلاته، ويستغفر من ذنبه، والله غفور رحيم³⁴.

إننا حين نحاول تحليل خطاب الممانعة لأدب الحداثة نجده خطاباً متعالياً يستتبع المخاطب، ويُملي عليه المواقف التي يجب أن يتّخذها، والآراء التي يجب أن يتبنّاها، ويقدم بين يدي ذلك حججاً، نناقشها – وفق السّلم الحجاجي-في الفقرة الآتية:

4-السّلم الحجاجي: لقد بُني الكتابان للتحذير من الحداثة وبيان أخطارها، وتأكيد أنها تمثل تهديداً للتراث والهوية، والدين أيضاً، واحتجّ المؤلفان بعددٍ من الحجج لتأكيد هذه النتيجة، وهذه الحجج تتفاوت قوة وضعفاً، وتختلف مرجعياتها ومُنطقاتها. وعلى الرغم من أنّ المؤلفين لم يعتمدا ترتيباً منطقيّاً لهذه الحجج، ولم يأخذا بتصنيف تراتبي لها، بل كانت هذه الحجج تتناوب وتتداخل حسب ما يسوق إليه الكلام -وأذكر بما ذكرته آنفاً حول الإطار السماعي للكتابين- إلا أنني سأعمد إلى ترتيب هذه الحجج وفقاً للسّلم الحجاجي الذي يعتمد البدء من الحجة الأضعف -حسب وجهة نظر مؤلف الكتاب- إلى الحجة الأقوى³⁵، وأذكر هنا - أيضاً- بأن من مبادئ السّلم الحجاجي أن الحجة في السّلم إذا كانت تؤدّي إلى النتيجة التي يوصل السّلم إليها فإن الحجة الأعلى منها تؤدّي بالضرورة إلى تلك النتيجة، والعكس ليس صحيحاً³⁶.

وبناءً على ما سبق فسيتمّ ترتيب الحجج من الأدنى إلى الأعلى، أو من الأضعف إلى الأقوى، على النحو الآتي:



أولاً: الحجاج الذوقية / الانطبائية: وقد تركّزت هذه الحجاج جميعها في كتاب (جناية الشعر الحرّ)، ومن تلك الحجاج الذوقية / الانطبائية أن هذا (الشعر الحرّ) لا يصلح للغناء³⁷، مع أنّ المؤلف قد ذكر من نماذج هذا الشعر الحرّ (الذي لا يصلح للغناء) قصيدة نزار قباني (رسالة من تحت الماء)³⁸، مع أنها غُنّيت كثيراً كما هو معلوم!

ومن الحجاج كذلك: أنه شعر لا يعلق بالذاكرة لخلوّه من القافية³⁹، وقد جاءت هذه الحجة في سياق الحديث عن أنّ (الشعر الأصيل) كما يسمّيه المؤلف -ويعني به الشعر التقليدي- يتناظر -يصلح للاستشهاد والحفظ، وأنّ المتدوّق له يمكن أن (يدندن) به في خلواته، ومن المعروف أنّ الشعر الحرّ لا يخلو من القافية، كما أنّ من القراء من يعشق هذا النوع من الشعر ويحفظ مقاطع طويلة منه!

وهنا جانبان موسيقيّان يؤكّد المؤلف أهميتهما من الناحية الذوقية لا الفنية، وفي هذا السياق يطلق على الشعر التناظري مصطلح (الشعر الموسيقي)⁴⁰، وكأنه بذلك ينفي الجانب الموسيقي عن (الشعر الحرّ)، وهي حجة غير مسلم بها، ولكن ليس هذا موقع نقاشه، ولعلّ هذا التفضيل يحيل إلى الخلفيّة السماعيّة للشعر القديم، وأنه كان ينقل شفاهاً بينما الشعر في العصر الحديث ينقل كتابةً، وليس هذا مقام التفصيل في هذا الموضوع.

ومن الحجاج الذوقية كذلك ما ذكره الكاتب من أنه يعجب بشعر أمثال المتنبي وشوقي، وأنه لا يجد هذه الروح في الشعر الحرّ⁴¹، وأنه حين يتجول بين كتب الأدب القديم -التي يشبّهها ببستان منوع- يجد ما يضحكه ويبكيه، وما يغضبه ويرضيه، ولا يجد مثل ذلك في الشعر الحرّ⁴².

ومن الحجاج الذوقية أن الشعر الحرّ يرد فيه كثير من الألفاظ التي لا تناسب الذوق، وفيها قبح ذوقي⁴³. ويمارس الكاتب انتقائية غير منصفة حين يوازن بين أجود ما في الشعر التناظري، وأسوأ ما في الشعر الحر، ويورد نماذج من هذا وذاك تؤكد هذه الموازنة⁴⁴.

ثانياً: الحجاج الفنية/ المعيارية: وأما الحجاج الفنية فقد ورد أكثرها في كتاب (جناية الشعر الحرّ)، واشترك كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) في الحديث عن بعض تلك الحجاج -وإن اختلفت الوجهة والمنطلقات- فمثلاً قضية الغموض وقضية الرمزية ينتقدها كتاب (جناية الشعر الحرّ) لما فيها من استغراق على الفهم، ويحاكمها إلى معيارية ما في الشعر القديم فيقول: "وهذه النظرية أخذ بها معظم أنصار الشعر الجديد، وفرضوها على أدبنا مخالفين بذلك

أهم عنصر من عناصر أدبنا عبر التاريخ وهو عنصر الوضوح الممتع والمأخذ القريب الميسر⁴⁵.

وأما كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) فهو يرفض هذا الغموض من منطلق أيديولوجي، حيث يرى أنّ الهدف من هذا الغموض تمرير الأفكار الهدّامة، والطعنات القاتلة إلى قلب الأمة وكيانها، وهنا يناقش الكاتب قضية فنية بأدوات غير فنية، فيصرّ على الوضوح، ويرفض المفارقات واللغة الإيحائية، ومبدأ تعدّد القراءات، فيقول مثلاً عن عنوان قصيدة (اشتعالات فرح مثقل): "انظر التناقض، فرح له اشتعالات، وأيضاً مثقل"⁴⁶، ويعلّق على نص محمد النيثي الذي يقول فيه: "هبطت زنجية شقراء في ثوب من الرعب بديع" قائلاً: "هل رأيت أيها القارئ زنجية شقراء قبل اليوم، وثوباً من الرعب وبديعاً في نفس الوقت [هكذا]"⁴⁷.

ومن الحجج الفنية التي أوردها كتاب (جناية الشعر الحرّ) الجانب الموسيقي، وهذا الجانب يحضر مرة أخرى هنا ولكن من الزاوية الفنية، لا الذوقية كما سبق، ويحتج المؤلف بأن الشعر العربي ناضج موسيقياً، ومن ثمّ فلا حاجة للتجديد في جانب الموسيقى⁴⁸، وهو هنا يختزل تجديديّة (الشعر الحرّ) في الجانب الموسيقي، ويختزل أسباب التجديد والتحديث في الرغبة في التجديد الموسيقي، وهو بهذا يتجاهل الظروف والملابسات والمعطيات التي دفعت إلى التجديد بوصفه مطلباً للمنشئ ومطلباً -كذلك- للمتلقّي الذي اختلف عن المتلقّي في أزمنة خلت.

ويجعل المؤلف سقف التجديد في الموسيقى هو ما بلغته الموشحات، ربما لأنّ لها سطوة التاريخ، وهو هنا ملتزم بمعيارية الشعر القديم في الجانب الموسيقي وفي الجوانب الأخرى. ويؤكد الكاتب - كذلك - معيارية الشعر القديم، وما سار على نهجه من الشعر الكلاسيكي في العصر الحديث، وأنه النموذج الذي يجب أن يحتذى، والمعيار الذي لا يسوغ الخروج عليه، مثل أن يكون الشعر مجنّداً لخدمة المثل العليا، وأن يخلو من الغموض، وأن يكون موزوناً جميل المبنى، وهي الخصائص التي تتبناها المدرسة الكلاسيكية، ولو أن الأمر اقتصر على الجانب الفني لكانت وجهة نظر فنيّة هي من حق صاحبها في الاختيار، ولكن كانت الإشكالية في تجاوز الجانب الفني الذي تتعدّد فيه وجهات النظر إلى جانب الهوية الذي يرى في الخروج على تلك الخصائص المعيارية خروجاً على الهوية وحرّباً عليها، أو ما هو أشدّ من ذلك وهو الجانب الأيديولوجي كما سيرد لاحقاً.

ثالثاً: الحجج الحركية / التنافسية: والمراد بهذه الحجة: تنافس حركة التحديث والتجديد مع حركة المحافظة في الوصول إلى أماكن التأثير في المجتمع، والأماكن القيادية في الحركة الثقافية والفكرية، ومدار التنافسية في كتاب (جناية الشعر الحرّ) هو حول الجانب الأدبي، بينما تأخذ هذه التنافسية الحركية في كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) طابعاً أيديولوجياً له أبعاد عقائدية وسياسية واجتماعية.

يقول أحمد فرح عقيلان: "لقد انتصر أهل الباطل فعلاً على حقنا، وحسبك أن تلقي نظرة على صحافتنا الأدبية وملاحقها الكثيرة لترى كيف تبدلنا بسحرنا الحلال وشعرنا المطرب المعجب سفسطة توشك أن تكون رطانة لا هي بالشعر ولا هي بالنثر"⁴⁹.

أما عوض القرني فيذكر الإشكالية نفسها ولكن في الإطار الفكري حيث ينبّه إلى "أنّ الحداثيين سيطروا على كثير من الأقسام الثقافية في الصحافة المحلية، وتغلغلوا في غيرها من النوادي الأدبية والأندية الرياضية، وفروع جمعيات الثقافة والفنون، واتخذوا حيال أي فكر غير فكرهم سياسة قمعية دينية كما يقول أحد التائبين منهم"⁵⁰.

رابعاً: حجج الهوية : كانت هنالك بعض الحجج التي تتعلق بجانب الهوية لأدب الحداثة، حيث تذهب هذه الحجج إلى أن مهد الحداثة (وشعرها الحرّ) كان غريباً، وأنها نبتة غريبة غريبة عن المجتمع العربي المسلم.

وكتاب (جناية الشعر الحرّ) يجعل جانب الهوية وكون هذا الأدب وافداً من الغرب سبباً كافياً لرفض هذا الأدب الجديد⁵¹، ولا يركز كثيراً في هذه الحجة على البعد الأيديولوجي، بل إنه يقبل الشعر القديم لأنه شعر عربي (أصيل)، ولأنه من نتاج عربي خالص حتى لو كانت فيه بعض المخالفات العقدية أو الشرعية أو الأخلاقية، كما تشهد بذلك الشواهد التي استشهد بها⁵².

ويشترك كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) مع كتاب (جناية الشعر الحرّ) في تأكيد أنّ الحداثة غريبة النشأة والجذور، ولكنه يؤكد أنّ الإشكال في ذلك أيديولوجي بما لدى الغرب من انحراف عقائدي وفكري وأخلاقي⁵³.

خامساً: الحجج الأيديولوجية: وهي الأعلى في السلم الحجاجي، ويحتج كتاب (جناية الشعر الحرّ) بالرجوع إلى ماضي الداعين إلى الشعر الحرّ وعقيدتهم، ويرى أنّ هذه الدعوة تأتي في هذا الإطار، وانطلاقاً من تلك الخلفية⁵⁴، ويحتج كذلك بما في دواوين أدباء الحداثة العرب مما يراه مخالفات شرعية وأخلاقية⁵⁵، وهو هنا يركز على دواوين الشعر الحرّ، ويتجاهل المخالفات الشرعية والأخلاقية الواردة في دواوين الشعر التناظري عند هؤلاء

الشعراء وغيرهم، وهنا يختل المعيار، فهل المرفوض هو الانحراف العقائدي والأخلاقي سواء أ جاء في أبيات تناظرية أم في أسطر من الشعر الحر، أم المرفوض (الشعر الحر) ابتداءً، وأتى جانب المخالفات الشرعية والأخلاقية تاليًا؟

وأما كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) فهو ينطلق من كتابات أعلام الأدب الحديث من كتّاب الغرب، فيحاكمهم إلى معايير العقائد والأخلاق مع أنّ منطلقاتهم ليست إسلامية؛ فما هم بمسلمين، ويرى أنّ هذا الانحراف العقائدي والأخلاقي لديهم يجب أن يجعل الأدباء السعوديين يُحجّمون عن الاستشهاد بأرائهم، أو الإعجاب بإبداعهم الفني⁵⁶.

ويمارس كتاب (الحداثة في ميزان الإسلام) شيئاً من الإسقاط وإلزام الكلام ما لا يلزم، فمثلاً يفسّر الألفاظ التي تتكرر لدى أدباء الحداثة مثل (الخروج على الماضي أو التراث أو نبذ التقاليد) بأنّ المراد بذلك الخروج على دين الإسلام⁵⁷، وأنّ مقولة (الوجه السالب في التراث) مثلاً لا يمكن أن يقصد بها غير الإسلام⁵⁸!

ويفسّر مقولة (الخروج من الدوائر المغلقة والزوايا الضيقة) بأنّ المراد بها "الانطلاق بلا ضوابط وبلا معايير في كل شيء، في الفكر والأدب، وبالتالي في الحياة عموماً"⁵⁹.

ويفسّر مصطلحات (السائد) و(النمطي) التي يدعو أدباء الحداثة إلى الخروج عليها بأنّ المراد هنا هو الإسلام وعقيدة الإسلام⁶⁰، ويفسّر مصطلحات (التغيير) و(خلع قلنسوة الوعظ) بأنّ المراد هنا هو العقائد والأخلاق⁶¹، ومقولة (تقديم رؤيا جديدة للعالم) تفسّر على أنها بلا شك تخالف ما قرّره الإسلام سلفاً. وفي الختام أقول: لقد كان الهدف في هذا البحث وصف تلك الآراء والحجج وتصنيفها، أكثر ممّا كان الهدف الردّ عليها أو تنقيدها.

ولنا أن نختلف في آرائنا، وأن نختار مواقفنا، ولكن علينا أن نفرّق بين ما هو قطعيّ وما هو ظنيّ.

وعلينا - كذلك- أن نفرّق في خطابنا بين ما هو من الاجتهادات وما هو من الثوابت والمسلّمات.

وعلينا ألاّ نبحث عن نقاط الخلاف فنضخّمها، ونعمّقها، ونصطّف على أساسها؛ فنحن في زمن نجد أنفسنا فيه أحوج ما نكون إلى البحث عن المشترك، وتوسيع دائرة المتفق عليه.

الهوامش:

- 1- انظر الدغمومي، (نقد النقد وتطير النقد العربي)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 1420هـ/ 1999م، ص 269.
- 2 - لا يُراد بالسلبية والإيجابية هنا قيمة معينة، وإنما المراد مجرد وصف الفعل.
- 3 - انظر: مجدي وهبة، وكامل المهندس، (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب)، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص 16.
- 4 - أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحر)، نادي أبها الأدبي، ط1، 1403 هـ/ 1982م.
- 5 - عوض بن محمد القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، هجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1408هـ/ 1988م.
- 6 - انظر: عبد الله محمد الغدامي، (حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2004م، ص 175.
- 7 - انظر: عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 9 - 10، وانظر -كذلك- عبد الله الغدامي، (حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية)، ص 113، وما بعدها.
- 8 - انظر: عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 5، وانظر -كذلك- ما ذُيِّل به الكتاب تحت عنوان (قالوا عن الكتاب).
- 9 - عبد الواسع الحميري، (ما الخطاب وكيف نحلله)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1430هـ/ 2009م، ص 9.
- 10 - انظر: المرجع السابق، ص 12.
- 11 - انظر: عبدالله الغدامي، (حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية)، ص 115.
- 12 - انظر: أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، ص 9.
- 13 - انظر: عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 9.
- 14 - انظر: المرجع السابق، ص 13.
- 15 - أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، ص 115.
- 16 - المرجع السابق، ص 30.
- 17 - انظر: المرجع السابق، ص 13.
- 18 - انظر: المرجع السابق، ص 30.
- 19 - انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

- 20 - انظر: عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 12.
- 21 - المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- 22 - أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، ص 13.
- 23 - المرجع السابق، ص 30.
- 24 - انظر: عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 13 - 14.
- 25 - المرجع السابق، ص 13.
- 26 - انظر: أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، ص 58، 69، وانظر -كذلك- عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 14، 37.
- 27 - أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، ص 13.
- 28 - أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، الصفحة نفسها.
- 29 - المرجع السابق، ص 15.
- 30 - المرجع السابق، ص 13.
- 31 - المرجع السابق، ص 30.
- 32 - المرجع السابق، ص 12.
- 33 - المرجع السابق، ص 14.
- 34 - المرجع السابق، الصفحة نفسها.
- 35 - انظر: أبو بكر العزاوي، (اللغة والحجاج)، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009م، ص 26 - 27.
- 36 - انظر: المرجع السابق، ص 26.
- 37 - انظر: أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، ص 103 - 104.
- 38 - انظر: المرجع السابق، ص 20 - 21.
- 39 - انظر: المرجع السابق، ص 93.
- 40 - انظر: المرجع السابق، ص 112.
- 41 - انظر: المرجع السابق، ص 28.
- 42 - انظر: المرجع السابق، ص 18 - 19.
- 43 - انظر: المرجع السابق، ص 16، 62.
- 44 - انظر: المرجع السابق، ص 16 - 17.

- 45 - المرجع السابق، ص 76.
- 46 - عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 37.
- 47 - المرجع السابق، ص 44.
- 48 - انظر: أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، ص 34.
- 49 - المرجع السابق، ص 14.
- 50 - عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 13 - 14.
- 51 - انظر: أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، ص 34، 77.
- 52 - انظر: المرجع السابق، ص 19، 59.
- 53 - انظر: عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 17.
- 54 - انظر: أحمد فرح عقيلان، (جناية الشعر الحرّ)، ص 36 - 37.
- 55 - انظر: المرجع السابق، ص 69 - 70، 79.
- 56 - انظر: عوض القرني، (الحداثة في ميزان الإسلام)، ص 23 - 24.
- 57 - انظر: المرجع السابق، ص 27.
- 58 - انظر: المرجع السابق، ص 30.
- 59 - المرجع السابق، ص 40.
- 60 - انظر: المرجع السابق، ص 51، 58.
- 61 - انظر: المرجع السابق، ص 53.